

## العلوم الطبية بين المغرب والأندلس

عبد العزيز بنعبد الله

أستاذ الحضارة والفن والفلسفة والعلوم الإسلامية بكلية الآداب بجامعة محمد الخامس،  
مدرس محاضر بجامعة القرويين ودار الحديث الحسنية.



المملكة المغربية في عهد المرابطين في القرن 11 الميلادي

إن معرفة الحاضر و استشراف المستقبل لا يتم إلا بدراسة معمقة للماضي. و دراسة مستنيرة للتاريخ و إحاطة بالتراث. خصوصا إذا كان هذا الماضي و التاريخ حافلا و مشرقا. من هذا المنطلق يعرض هذا المقال بشكل ملخص بعض المحطات التي عرفها الطب عند العرب في العصر الذهبي للحضارة الإسلامية العربية. خصوصا في شطرها الغربي أي المغرب والأندلس.

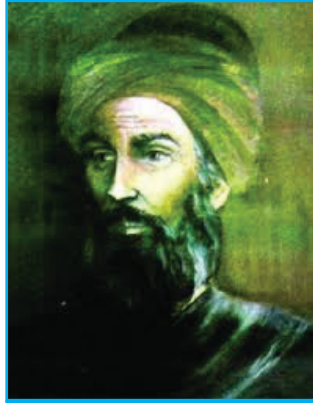
يعتبر الحارث بن كلدة أول رجل استحق عند العرب لقب الطبيب، وأول من جمع بين تطبيق الطب وبين النظريات التي يركز عليها هذا العلم، وقد درس هذا الطب بفارس. و اكتسب هذا العلم أهمية كبرى في مختلف العصور الإسلامية جعلت منه فرضا كفاثيا مما حدا بالشافعي إلى القول: «لا أعلم علما بعد الحلال والحرام أنبل من الطب»، وقد تطورت العلوم الطبية عند العرب حتى برزوا على اللاتين كما يقول كودارد (Godard) في وصف تاريخ المغرب ص 449، وقد ترجم العالم الألماني (ويستنفلد) لثلاثمائة من أطباء العرب، وتوجد في باريس وحدها ما بين 200 و 300 مجلد.

كان ابن سينا أساس الدراسات في جامعات أوروبا طوال ستة قرون. وقد أجري أول امتحان في صناعة الطب عام 295 هـ وبلغ عدد المتخرجين في بغداد عام 319 هـ ثمانمائة وستين رجلا. كما أن أول امتحان أجري للصيدلة كان عام 221 هـ، وكان الأطباء يؤدون قسم المهنة، وتوفرت من بينهم في بغداد أعداد متخصصة للسجون وأخرى تطوف في البادية، مع خزانة من الأشربة والأدوية. وقد عرفت القاهرة في القرن الرابع الهجري أربعين خزانة في قصر الخلافة الفاطمية، جمعت إحداها مائة ألف مجلد: ستة آلاف وخمسمائة في الطب والفلك، وكان في المارستان العضدي أربعة وعشرون طبيبا من ذوي الاختصاص تسهر على

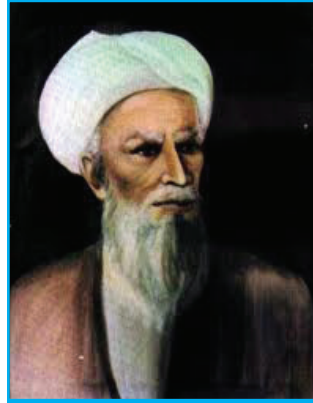
وأول طبيب عربي هو أبو بكر محمد بن زكرياء الرازي الذي ألف ما يناهز مائتي كتاب، ترجمت جميعها إلى اللاتينية منها كتابان في أمراض الأطفال وتجارب المارستان، وهو أول من استعمل الفتائل والأنابيب في العمليات الجراحية أعقبها وضع الأواني الزجاجية لاحتواء السوائل الملونة ويعتبر لوكليز كتاب القانون لابن سينا والحاوي للرازي وكتاب علي بن عباس أعظم الموسوعات الطبية التي أنتجها العرب، ويوجد قرار جامعي مؤرخ ب 1617 م يدل على أن هذه الكتب كانت أساس التعليم الطبي في جامعة لوفان Louvain في القرن السابع عشر، كما



ابن زهر



الزهرابي



الرازي



ابن سينا

وابن باجة وابن رشد وبني زهر وأبي الصلت أمية بن عبد العزيز الداني و أبي جعفر الغافقي.

ويفضل الانبعاث العربي في الأندلس صارت أوربا تنفض عنها أودية الركود وأصبح المسيحيون يتوافدون على طليطلة للارتشاف من معين العلم، وقد استنجد ريموند، أسقف المدينة بعلماء العرب لعلاج الفقر اللاتيني، وإذ ذلك بدأت ترجمة مصنفات العرب العلمية ثم ورد جيرار دوكريمون على طليطلة، حيث استقر نحو من نصف قرن نقل خلالها من العربية إلى اللاتينية ستة وسبعين كتابا عربيا أو إغريقيا معربا، وكانت حركة الترجمة بالشمال الإفريقي قد بدأت منذ القرن الرابع حيث أسس قسطنطين التونسي الصقلي مدرسة سالييرنة، وهي أول مدرسة من نوعها في أوربا وهو الذي ترجم إلى اللاتينية زاد المسافر، وكتب الرازي وألف نحو من أربعة وعشرين كتابا في الطب منها: قانون الطب في اثني عشر مجلدا، و«فياتيكوم» في الطب العام في سبعة أجزاء. ولكن لم يكد يمضي العقد الأول من القرن السابع أي بعد غزوة العقاب التي انهزم فيها الموحدون، عام 609هـ، حتى بدأ صرح العلم ينهار كما يقول ابن عذارى.

وقد أكد الدكتور رينو أن المغرب لم يقم على وجه العموم بدور يذكر في العصر الذي كان الطب وبقية العلوم يتألق نورها في سوريا والعراق ومصر وحتى في إسبانيا المجاورة حتى امتزج تاريخ الأندلس بتاريخ المغرب تحت راية المرابطين والموحدين فأصبح من حق المغرب أن يتبنى ابن باجة وابن طفيل وابن رشد.

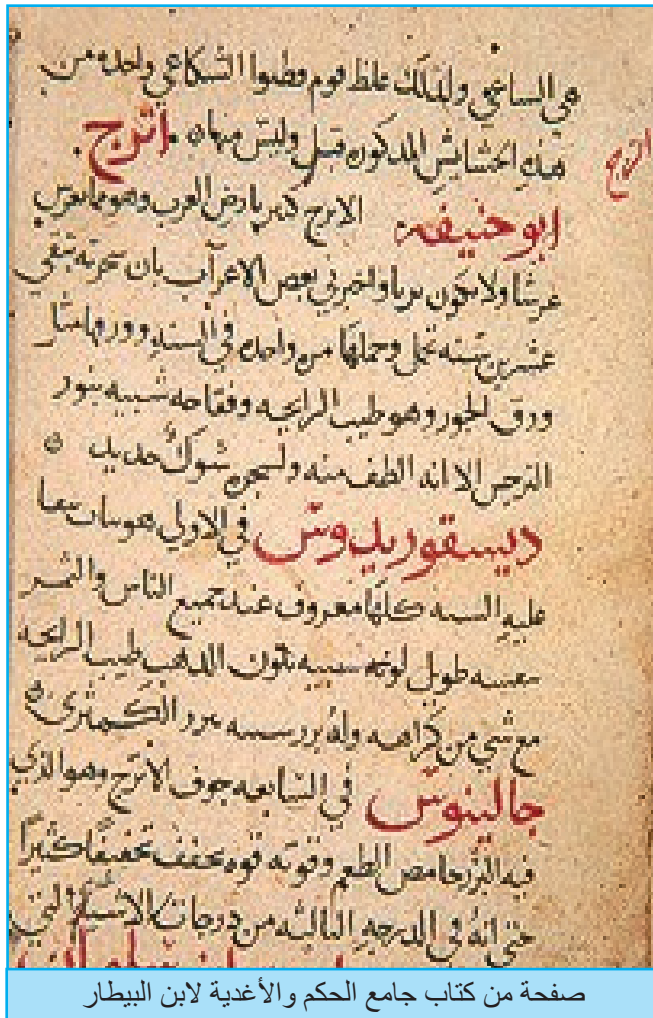
ويظهر أن أبا العلاء زهر بن زهر هو أول طبيب أندلسي ورد على المغرب بعد استيلاء المرابطين على الأندلس، وقد كان طبيبا خاصا ليوسف بن تاشفين بعد أن كان طبيب المعتمد بن عباد باشبيلية، ووالده هو أبو العلاء أبو مروان عبد الملك بن

مقاومة الأمراض في مختلف طبقات المجتمع بأساليب وقائية، منها حسن التغذية وتناسب الملبوس مع الفصول والتهوية، مما أدى إلى توفير الحمامات التي بلغ عددها بضعة آلاف في بغداد منذ القرن الثالث الهجري.

أما في الأندلس فقد كان القرن الرابع الهجري أنصع القرون، برز خلالها ابن جلجل كأعظم طبيب طبائعي حيث عرّب مفردات (ديسقوريدس) وزاد عليها الأدوية المعروفة عند العرب، وكتب تاريخا للأطباء والحكماء الذين ظهوروا قبله بالأندلس، ومنهم الوليد المدحجي الذي دخل الأندلس مع عبد الرحمن بن معاوية، وقد تعرف المغرب الأقصى إلى بعضهم كإسحاق ابن عمران الذي أدخل الطب إلى المغرب وأحمد بن إبراهيم المعروف بابن الجزائر المتوفى عام 395 هـ/1004م، صاحب زاد المسافر وقوت الحاضر، الذي يوجد الجزء الأول منه في المكتبة الوطنية بالرباط.

وكان بقرطبة في هذه الفترة أطباء منهم حسداي و أبو عثمان الجرا، ومحمد بن سعيد وأبو عبد الله الصقلي الذي كان يتكلم بالإغريقية، وعبد الرحمن بن هيثم ومحمد بن عبدون القرطبي الذي دخل مصر والبصرة ودير مارستان مصر، ثم عاد إلى الأندلس عام 360 هـ. ولكن أبرز طبيب عربي ظهر بالأندلس في القرن الرابع هو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي صاحب كتاب التعريف لمن عجز عن التأليف، الذي يعتبر اللبنة الأولى في الجراحة حيث كان أعظم ممثل لعلم الجراحة في المدرسة العربية كما يقول لوكلير، وقد توفي عام 404 هـ / 1013م، حسب ليون الإفريقي وقبل عام 500 هـ حسب المؤرخين الأسبان.

وهنا تدخل المغرب الأقصى في عهد المرابطين والموحدين طوال القرنين الخامس والسادس الهجريين حيث لم يسبق للفكر أن تحرر كما وقع في هذا العصر، وشهد بذلك نبوغ أمثال ابن طفيل



قبل أن يصفوا لهم دواء من الأدوية. وله أيضا كتاب التيسير، ألفه بطلب من ابن رشد كتنزيل لكتابه الكليات Colliget وقد نقل ابن عبد الملك في الذيل والتكملة أن ابن رشد كان يفضل ابن زهر على غيره من أهل عصره، وقد نهج ابن زهر في كتابه أسلوبا جديدا في الحكمة القياسية مستخدما التمحيص العقلي للوصول إلى أحسن النتائج، فاستطاع بفضل قياساته الطبية وتجربته الشخصية الكشف عن أمراض جديدة لم تدرس قبله، فقد اهتم بالأمراض الرئوية واختص في أدواء الجهاز الهضمي، واكتشف طفيلية الجراب وسماها صؤابة الجرب، كما بسط طرق العلاج القديمة وأوضح أن الطبيعة إذا اعتبرناها قوة داخلية تدبر شأن الجهاز البشري تكفي وحدها في الغالب لعلاج الأمراض، وقد أبرز كودارد (Godard) ما امتاز به ابن زهر من عبقريته فذة تطورت بفضلها شعب ثلاث حاول توحيدها وهي الصيدلة، الجراحة والطب العام.

أما الحفيد أبو بكر بن أبي مروان طبيب خدم الدولتين للمتونية والموحدية توفي عام 596 هـ بمراكش، دس إليه ابن يوجان وزير

أبي بكر الذي تولى رئاسة الطب ببغداد ثم بمصر و بالقيروان. وقد تمخضت تجارب أبي العلاء في المغرب عن تأليفه لكتاب التذكرة الذي ترجمه وطبعه كولان عام 1911 بباريس، وهو خاص بالأمراض الغالبة في مراكش مع الأدوية المناسبة لها، وقد جمعت في المجربات عام 526 هـ. وهناك تجارب أخرى كانت مراكش مركزا لها وهي: رسالة في أمراض الكلى كتبها أبو العلاء للخليفة علي بن يوسف وتوجد ترجمتها باللاتينية التي نشرت عام 1897م. وكذلك مخطوط حول الخواص بمكتبة باريستاسقي منه ابن البيطار، خواص لحوم الحيوانات وجامع أسرار الطب. وكان أبو العلاء يعالج بجس النبض والنظر إلى قوارير البول.

أما أبو مروان عبد الملك بن زهر فقد ألف كتاب الاقتصاد، يوجد مخطوطه بباريس رقم 2959، و نسخة بالأسكوريال محررة بالعربية ومكتوبة بحروف عبرانية، ويذكرون أن ابن زهر هذا أعظم من ابن سينا ولا يعدله سوى الرازي في الشرق، وقد نقد في كتابه هذا أطباء عصره الذين لم يكونوا يمحسون حالة مرضاهم

وطبيب المستنصر. أبو جعفر بن الغزال طبيب المنصور وعمدته في تركيب الأدوية والمعاجين. أبو بكر بن القاضي بن الحسن الزهري تلميذ ابن رشد، كان يطبب الناس من دون أجر. محمد الندرومي الكومي، ولد عام 580 هـ، طبيب الناصر والمستنصر، هو الذي اختصر المستنصر للغزالي وتلمذ لابن رشد وابن موراطير. أبو إسحاق بن الحجر كبير أطباء الرشيد الموحيدي.

والسلسلة طويلة كان المغرب مقرا لها بمراكش، وميدانا لمختبراتها ومختلف أنشطتها في الكشوف الطبية ووسائل العلاج، ذكر منهم ابن أبي أصيبعة في طبقاته، أحمد بن سابق وابن الجلاء وابن طلموس وأبا جعفر الذهبي، كما ذكر صاحب الذيل والتكملة عليا بن أحمد الشلطيبي الطبيب الشاعر المتوفى بمراكش عام 565 هـ أو 566 هـ.

**وقد عرفت العاصمة فاس ومدن أخرى ثلثة من كبار أطباء العدوتين منهم :** أحمد بن مضا اللخمي الذي لقي عياضا بسبته. إبراهيم بن صواف الحجري الذي تصدى للعلاج بطنجة واستقر آخر عمره بفاس توفي عام 506 هـ. أحمد بن عبد الله بن موسى القيسي الذي سكن فاسا وتوفي بها عام 571 هـ، وهو تلميذ أبي بكري بن العربي المعافري. علي بن عتيق الخزرجي نزيل فاس شاعرو طبيب، توفي عام 598 هـ. هاني بن الحسن اللخمي الغرناطي تلميذ ابن فرتون بفاس، توفي عام 614 هـ، كانت له مشاركة في الطب والحديث والأصول. محمد بن قاسم الأنصاري الجياني، سكن سبته وفاس.

ومن الأسر التي اشتهرت بالبراعة في الطب: الكراميون، السملاليون والدادسيون المختصون في أمراض العيون، وبنو افلاطون الذين أشار إليهم ابن الزيات التادلي في التشوف إلى رجال التصوف ص 130. وقد صنف الكتاب عام 617 هـ، وجدد طبعه في الرباط .

ومن الأطباء المغاربة الذين رحلوا إلى المشرق : ابن يقظان السبتي الطبيب الشاعر الذي توجه إلى مصر عام 544 هـ، ثم إلى اليمن والعراق، ابن سمعون يوسف السبتي نزيل حلب وطبيب أهل فاس، عبيد الله بن المظفر الباهلي المعروف بالمغربي، من أهل المرية، كان طبيب المارستان في معسكر السلطان السلجوقي، سكن دمشق.

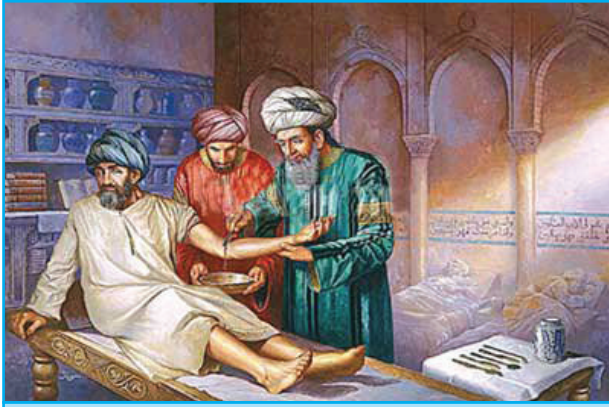
وممن عاش أيضا في دمشق حيث كانت له عيادة الطبيب: عمر بن علي القلعي الذي كتب ملاحظات على كتب ابن سينا،

المنصور السم هو وابنة أخته، وكانت هي وأمها عالمتين بالطب لاسيما في أمراض النساء، وكان أبو بكر هذا شاعرا يحفظ صحيح البخاري بأسانيد، ولم يكن في زمانه أعلم منه باللغة يحفظ شعر ذي الرمة وهو ثلث لغة العرب.

أما ابن الصائغ المعروف بابن باجة، فهو أبو بكر محمد بن يحيى شيخ ابن رشد، توفي بفاس، استوزره أبو بكر يحيى ابن تاشفين مدة عشرين سنة، مات مسموما عام 533 هـ ، ولم يصلنا شيء من المؤلفات الطبية المنسوبة لابن باجة، ومن تلامذته سفيان الأندلسي المتوفى عام 537 هـ الذي تعاون مع شيخه في تأليف كتاب التجريبتين. ومن شيوخ ابن رشد أيضا: أبو جعفر بن هارون الترجمالي، تلميذ المعافري في علوم الحديث، كان عالما بصناعة الكحالة أي الكحل في طب العيون، ورغم وجود هؤلاء الأطباء في المغرب فإن الحاجة كانت تمس أحيانا للاستعانة بأطباء من الأندلس، حيث لاحظ ابن عذارى أن أبا يعقوب يوسف الموحيدي اعتل عام 573 هـ فوفد عليه أطباء من الأندلس للمعالجة.

وذكر صاحب الأنيب المطرب من أطباء يوسف بن عبد المومن الوزير أبا مروان عبد الملك بن قاسم القرطبي زيادة على ابن طفيل وابن رشد وابن زهر. فابن رشد أبو الوليد قد تميز في الطب وله كتاب الكليات الذي ترجم إلى اللاتينية وهو أول من وصف الدورة الدموية الكبرى قبل وليام هارفي (William Harvey). ولابن رشد تلخيص كتاب العلل والأمراض والتصرف والحميات والأدوية المفردة وحيلة البرء، وقد اقترح في شرحه لابن سينا ما يصفه الأطباء اليوم وهو تبديل الهواء في الأمراض الرئوية، وقد أشار إلى جزيرة العرب وبلاد النوبة كمراكز شتوية.

**وهناك أطباء آخرون حفل بهم هذا العصر في العدوتين بإشراف عاصمة الحمراء منهم :** يوسف بن موراطير طبيب المنصور والناصر والمستنصر. عبد الملك بن قبال الغرناطي، طبيب المنصور والناصر إبراهيم الداني، كان أمين البيمارستان وطبيبه بمراكش، حيث توفي في أيام المنتصر. أبو يحيى بن قاسم الإشبيلي، صاحب خزانة الأشربة والمعاجين، المتوفى بمراكش أيام المستنصر خلفه ولده على الخزانة. أحمد بن حسان الغرناطي، طبيب المنصور وهو الذي رافق ابن جبير في رحلته، ودفن بفاس وقد ألفت للمنصور كتاب تدبير الصحة، وكان ولده أبو العلاء طبيبا للمستنصر. أبو محمد الشذوني الإشبيلي، تلميذ عبد الملك بن زهر، كان جيد العلاج وطبيب الناصر. أبو الحسين بن أسدون الملقب بالمصدوم، تلميذ عبد الملك بن زهر، كان شاعرا طبيبا للمنصور، وهو شيخ عبدالعزيز بن مسلمة الباجي المعروف بابن الحفيد شاعر



عملية جراحية



تدريس الطب في المستشفى

المسلمين». وكان الأوربيون يضطرون إلى اللجوء للمستشفيات العربية، فهذا الملك شانجة توجه إلى قرطبة من أجل العلاج من مرض الاستسقاء (لوكليبر).

ثم جاء العصر المريني و الوطاسي الذي امتد ثلاثة قرون (من 637 هـ إلى 961 هـ) تقلب المغرب خلالها في شتى التطورات من الازدهار إلى الانهيار، ولعل لغياب العنصر الأندلسي في هذه الفترة أثره في تدهور الفكر العلمي بالمغرب الأقصى لاسيما وأن البلاد عانت الشدائد في مجابهة الاستعمار الأيبيري، ولعل من نتائج هذا الغياب الأندلسي شعور بني مرين بضرورة الاعتماد على النفس فشيّدوا لأول مرة في تاريخ المغرب مدارس ومعاهد خاصة بفاس: كمدرسة الحلفائين (الصفارين) (عام 670 هـ) ومدرسة العطارين ومدرسة المدينة البيضاء أو فاس الجديد، ومدرسة الصهريج، ثم مدرسة الوادي ومصباح.

ثم توالى إنشاء المعاهد في المغرب الأوسط، فكان لكل حاضرة مدرستها، فازدهرت المصحات والممارسات العلمية المختبرية نسبيا، وربما اختلط بهذا الصنف من الممارسات العلمية المختبرية صنف آخر للغرباء والمجانين، ومهما كانت المكانة العلمية لهذه المؤسسات الاجتماعية فلم تك تخلق أية مدينة من مارستان حتى ذكر (مارمول) أن شالة نفسها كان بها مستشفى، ومع ذلك فقد ظهرت اتجاهات جديدة في العلاج الروحي حيث كان مستشفى سيدي فرج بفاس يعالج الأمراض بالموسيقى، وقد أشار إلى ذلك صاحب (كنوز الصحة و يواقيت المنحة ص 72) ملاحظا أن كثيرا من المرضى شفوا بذلك لاسيما بعض المجانين، فكانت هذه الظاهرة انطلاقة لاستحالة استخدام المستشفيات الكلاسيكية العادية كملاجئ للمجانين.

وقد ولد في المغرب، توفي عام 576 هـ. أما بغداد فقد عرفت محمد الغساني الجلياني، طبيب المدرسة النظامية الذي سكن كلا من القاهرة ودمشق، كان يلقب بحكيم الزمان، وكان طبيب صلاح الدين الأيوبي. أما موسى بن ميمون القرطبي اليهودي، فقد انجذب إلى فاس عاصمة الفكر وأثينة إفريقية عام 1160م حيث مكث خمس سنوات ينهل من معين العلوم الطبية والكلامية قبل أن ينتقل إلى عكرة ومصر.

وقد وجد مئات الأطباء من الأندلسيين والمغاربة في المغرب الأقصى ومختلف حواضره، منتديات ومختبرات تفتتت فيها عبقريتهم وخاصة في المستشفيات، ومنها دار الفرج التي أنشأها أبو يوسف الموحي بمراكش، وقد وصف صاحب الاستبصار في عجائب الأمصار ما عاينه فيها من منازل ومياه ورياحين وأطعمة وأشربة للمرضى، وقد وصف كل ذلك عبد الواحد المراكشي في المعجب مشيرا إلى ما حفلت به من أدوية وصيدليات وأخصائين في مختلف الشعب الطبية، مما أكده ميبي (Millet) في كتابه الموحدون - طبعة 1923 ص 129، حيث لاحظ أن هذا المستشفى لا يخلف وراءه مصحات أوروبا المسيحية فحسب بل تخجل منه حتى اليوم مستشفيات باريس، ولا بدع إذا كان مستشفى الموحيين بهذه المثابة بالنسبة لأوروبا فقد لاحظ ولتر في مختصر التاريخ، ازدهار علم الطب والتداوي عند العرب يوم كان الأوربيون يجهلون هذا العلم ويحتقرون أربابه، إذ كانت الكنيسة قد حرمتهم وحصرت التداوي في زيارة الكنائس والاستشفاء بنخائر القديسين والتعاويذ والرقي التي كان يبيعهها رجال الدين، إلى أن قال « وكان الأوربيون يستنكفون من النظافة لأنها تشبه الوضوء عند